بسم الله الرحمن الرحيم

بناء الشخصية الإسلامية

الفقير إلى رحمة ربه: أبو مالك

ثائر أحمد سلامة

غفر الله له ولوالديه ولمن له حق عليه

الطبعة الأولى 1445 هـ

بناء الشخصية الإسلامية:

رحلة فضائية إلى القمر، استعدادات هائلة!

هب أنك تريد أن تذهب في رحلة فضائية إلى القمر، حتماً ستعلم بأن القمر غير مُعَدٍّ مُسبقاً لاستقبالك ضيفاً! وأنه لا يصلح لتعيش عليه بضع ثوان إلا إذا قمت بتحضيرات تناسب أجواءه، وتتكيف مع حاجاتك! حيث إنك لن تستطيع تغيير أجواء القمر بما يلائم حاجاتك، فإنك قد تستطيع التغلب على هذه المعضلة بأن ترتدي ألبسة معينة، وأن تتزود بأوكسجين للتنفس، وما إلى ذلك، وعليك أيضا أن تنظر إلى المخاطر التي تحدق بك من الكون نفسه، من أشعة ضارة، ونيازك قد تنهال في أية لحظة عليك إذ لا يوجد على سطح القمر ما يقيك إياها! فلا بد إذن أن تحضر نفسك للتكيف مع مخاطر كونية، إذ الكون نفسه لم يُعَدَّ مُسبقا لزيارتك تلك للقمر، وإن لم تتخذ الإجراءات الضرورية فإن زيارتك ستنتهي بما لا تحب!

"لنفترض أنك على القمر، على متن محطة فضائية مهيئة بظروف تجعل تنفسك طبيعيا، لأن الهواء مهيأ لك في أجوائها كأنك على الأرض، ولا حاجة لك في داخلها لارتداء أي ملابس واقية كتلك التي تلزم رواد الفضاء، وفي لحظة ما قررت أن تخرج خارج هذه الغرفة، لكنك نسيت أن ترتدي ثياب رواد الفضاء الواقية حين فتحت باب الغرفة! هذا ما سيحصل لك فور فتحك لباب الغرفة وتعرض وجهك لأجواء القمر!

ستبدأ فوراً بالاختناق الشديد، تحاول أن تأخذ نَفَسَاً لداخل الرئتين، ولكنك ستعجز تماماً عن أخذه، فكل الهواء الذي كان في رئتيك سيتسرب من رئتيك إلى الخارج فوراً، ولن تستطيع حبس أي جزيء منه أو استرداده حين يخرج من الرئتين اللتين ستبدآن بالانطباق، إذ لا شيء في الخارج إلا الخواء والفراغ التام، فلا هواء ولا ضغط من حولك، لن تستطيع أن تشهق لتأخذ نَفَسَاً واحداً إلى داخل رئتيك مهما حاولت.

ثم تبدأ السوائل في داخل جسدك بالغليان، فيخرج الدم من محاجر عينيك، ومن أذنيك، ومن فمك، وأنفك، ومن كل سبيل. ويتجمد الدم الخارج من أنحاء جسمك مباشرة أمام ناظريك، ستلاحظ -وأنت في قمة الذهول- أن لون الدم أبيض وردي، ويبدأ الدم بالهبوط ببطء شديد نحو سطح القمر، بفعل جاذبية القمر الضئيلة جدا.

أما أنت، فلا تتمالك نفسك، وتبدأ بالوقوع على سطح القمر ببطء وأنت تحاول أن تلتقط أي نفس بلا فائدة! في الوقت نفسه، الذي ستكون "مطبوخاً" بفعل الأشعة الكونية التي تحيط بك من كل صوب[1]"!

لكنك على سطح الأرض لا تحتاج لشيء من تلك الاستعدادات، بل الأمر مهيأ لك تماماً لتعيش حياة طبيعية، يشبّه (أنتوني فلو) الأمر بأن تذهب في إجازة إلى فندق تختاره لأول مرة، فتجد كل ما في الغرفة مهيئاً وفق أدق تفاصيل رغباتك وتفضيلاتك، من الأغاني المنتقاة في جهاز التسجيل، إلى أنواع المشروبات في الثلاجة، إلى الطعام الذي تشتهيه وتفضله بطريقة التحضير التي تحبها، إلى أنواع منتجات العناية الشخصية المفضلة لديك... الخ، فلا يمكن اعتبار كل ذلك صدفة، لا بد أنك ستعتقد أنهم أعدوا الغرفة خِصّيصاً لك أنت بالتحديد!

---

[1] Bob McDonald looks back at 30 years of hosting Quirks & Quarks. CBC Radio, Listen to Min 26-27 of the show.

كتب الفيزيائي (فريمان دايسون Freeman Dyson) "كلما فحصت الكون ودرست تفاصيل هيكلته وهندسته، كلما عثرت على المزيد من الأدلة التي تشير إلى أن الكون كان على عِلْمٍ بقدومنا نوعا ما"[2]

تعيير ثلاثي الأطراف، دليل العناية!

لكن الوضع مختلفٌ على وجه الأرض، فأنت لا تحتاج لملابس خاصة، ولا للتزود بأوكسجين مؤقت، ولا لاتخاذ إجراءات معينة لتقيك الأشعة الكونية، ولا حتى النيازك والشهب وغيرها، فأنت بوضعك الطبيعي مجهز بأجهزة للتنفس بكل حرية في أي مكان من كوكب الأرض، وفي الوقت نفسه فإن نسبة الأوكسجين في الجو مناسبة تماما لجهازك التنفسي ولاحتياجاتك، وحين تمضي في نزهة في المساء لن تصطحب معك حاجزا يقيك من النيازك والشهب، فالأرض معدة لاستقبالك واستضافتك لمليارات من السنين لا لدقائق معدودة!

فأنت مجهز مسبقا للعيش في الأرض بما يلزم ذلك من تصميم مسبق لأجهزتك الحيوية، والأرض نفسها مجهزة مسبقا بما يلزمك مما لا تحتاج معه لتغيير ظروفها وغلافها الجوي، وجاذبيتها، ومدها وجزرها، وموقعها، وما إلى ذلك، والكون أيضا كان حليفا لكما بقوانينه وتصميمه، فلم يفسد هذا النظام الثنائي (الإنسان- الأرض) بل تحالف معه ولم يفسد هذا التجهيز فكان النظام ثلاثيا ((الإنسان/الكائنات الحية)، (الحياة)، (الأرض، الكون))، كلُّ ضلع من أضلاع هذا المثلث مجهز للآخر وكلٌّ متعاون مع الآخر لتتحقق إمكانية الحياة!

يدفعنا هذا إلى طرح تساؤلات كبرى لتفسر لنا وجودنا:

العقدة الكبرى: التساؤلات الكبرى، الأصل الذي ينبثق عنه نظام الحياة

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان يدخل هذه الحياة خالياً من العلم، مزوداً بأدوات الإحساس التي تنقل له صورة الواقع ليفكر فيه ويفسره، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ النحل [78]، فيعيش الإنسان في هذه الدنيا متعلما، مستخدما حواسه لنقل صورة العالم الخارجي وما فيه من مجاهيل تحتاج لسبر أغوار إلى دماغه، عبر وسائل الإحساس من سمع وبصر وغيرها ليتفكر، ويتفاعل،

وذلك أن الإنسان، أي إنسان، ترد عليه أسئلة خطيرة مهمة تلح عليه بالبحث عن أجوبة عليها، وتشكل لديه عقدةً لِطَبيعةِ أغوارِها العميقةِ، ومن أكبر هذه العقد، تساؤلات الإنسان الكلية عن الوجود، أي عن الكون والإنسان والحياة، مصدرها ومصيرها، وصلتها بما قبلها وما بعدها

وما الغاية من وجودها؟ والوظيفة التي وجدت من أجلها، (هل وجد الكون ليكون مضيافا للحياة؟، وما هي وظيفة الإنسان في هذا الكون؟ وما الغاية من خلقه وإيجاده؟ وما هي صلته بالوجود وما هي صلة الوجود به؟

لماذا يتعين أن يكون هناك شيء ما، بدلا من العدم أو اللاشيء؟ كيف ترجحت كفة الوجود على كفة العدم؟ خصوصا في ظل برهنة العقل والعلم تماما على أن الكون، مادةً وطاقةً وزماناً ومكاناً قد بدأ قبل بضعة مليارات من السنين لم يكن قبلها شيئاً مذكوراً!

[2] هناك إله، كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره، أنتوني فلو، ترجمة جنات خالد مركز براهين ص 116-117

هل يسير الكون العظيم وفق مخطط كوني، أم سيراً عشوائيا؟ من الذي أورى نار المعادلات والقوانين الفيزيائية وبثها في الكون الحقيقي؟

ولماذا يتبع الكون هذه القوانين ويجري بناء عليها، أي أنه محكوم بها وكأنها مخطط مسبق متسق للأشياء!

هل للكون من إله؟ هل ما يحيط بك من سهول وجبال ووهاد، وأرض وشمس ومجرة وحياة تعج بأنظمة بالغة الانتظام والدقة، وبعضها بالغ التعقيد، هل هي مخلوقة لخالق أم أزلية؟ أم وُجِدْتَ من غير شيء؟

من الذي يدير الكون ويحفظه ويمسكه أن يزول؟

من الذي يدبر هذا الوجود المغرق في الأسرار والعجائب، القائم على نظام فيزيائي صارم مدهش، ويجري وفقا لعمليات كيميائية – نووية بالغة التعقيد والدقة، مكتوب بلغة الرياضيات المعقدة، تجري في عروقه آيات الروعة والجمال!

وما علاقة الوجود، والموت والحياة بالزمن الراكض فينا مذعورا يتسرب من بين أصابعنا، كالقبض على الريح، منذرا بأن نتنبه أنه وجود مؤقت، فهل هو اختبار، ومرحلة لها ما بعدها!

فهل يوجد بعد هذا الوجود شيءٌ، أي وجودٌ آخر؟ فالأشياء تنعدم وتذهب، فهل تعود ثانية أم لا وهل هناك "مكان" آخر تذهب إليه أم لا؟ وما هي علاقة هذا الوجود (وصلته) بما قبله وبما بعده؟ ما علاقة هذا الخالق بالكون؟ لماذا خلقه؟ (الغاية والوظيفة والمسؤوليات) ما علاقة هذا الخالق بي شخصيا؟ ماذا يريد مني؟ كيف أتواصل معه؟ كيف أعرفه على الحقيقة؟ وكيف نتوصل إلى معرفة هذه العلاقات؟

ما هي الحياة؟ وكيف نشأت في الجماد أول حياة بكل ما في الخلايا من التعقيد؟ وكيف نبضت هذه الخلايا -التي كانت جمادا قبل ذلك- بالمشاعر والأحاسيس، والعاطفة، والحزن، والفرح؟ ثم بالعقل والتفكير! لماذا خلق الإنسان؟ وما هي وظيفته؟ وما هو موقع الإنسان والحياة في "الخطة الكونية الكبرى"؟

ولماذا كان الإنسان ذا وعي وإدراك وعقل وذكاء؟ ما هو الإنسان؟ ماذا يعني أن تكون إنسانا؟ وكيف تحقق إنسانيتك بشكل متوائم مع ما يحقق إنسانية غيرك من البشر؟

وما الذي يجعل الإنسان كائناً راقياً مكرماً ناهضاً، ويرفعه عن غيره من الكائنات؟

ما هو الموقف من الحرية والعبودية، الأمان والرفاهية، العدل والظلم، الحقوق والواجبات والمسؤوليات؟

ما هو الموقف من قضية الإنسان التي لا تتغير، ولا يجوز أن يغفل عنها الإنسان ساعة: قضية وجوده في هذا الكون، ومصيره! ما هي الفلسفة الصحيحة للموت والحياة والزمن؟

هل الإنسان مُخَيَّر أم مُسَيَّر؟ وهل هناك نظام ينبغي له أن يُسيِّر سلوكه وفقه؟ أم له مطلق الحرية والخيار في اتباع عقله وشهواته ورغباته؟ هل عليه مسؤوليات وواجبات تجاه الغير؟

ما هو معيار الخير والشر؟ الصواب والخطأ؟ الحسن والقبح؟ المدح والذم؟ الثواب والعقاب؟ والذي على أساسه سيتحدد أننا نحيا الحياة بشكل صحيح أم خطأ؟

ألا ترى أهمية الإجابة على نظائر هذه الأسئلة لتفسر لك سبب وجودك في الحياة، ومن أتى بك؟ وماذا بعدها؟ **وماذا يراد منك**؟ لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ هل لما تفعله في هذه الحياة من علاقة بما بعدها؟

العدم والوجود، الموت والحياة، الفناء والخلود، يمثل القلقُ الذي يستدعي إجاباتٍ على هذه الأسئلةِ وماهيتها، قيمةً فكريةً تُعبّر للإنسان عن ذاته، وسبب وجوده، يعطي للحياة معنىً وأبعاداً رائعةً، **وتعطي للإنسان قيمة تتناسب مع كونه: صاحب الحضور المركزي في هذه الحياة**، لأجله صُمِّمَتْ أنظمةٌ كونية بالغةُ التعقيدِ، وصُمِّمَ هو ليعيش فيها[3]، فلا معنى للإنسان إن لم يفهم معنى حياته، ووظيفته ودوره فيها، وإلى أين المصير! وأن يحل العقدة الكبرى!

تشكل هذه الأسئلة ما يسمى بالعقدة الكبرى، وتشكل الإجابات عليها حلا لهذه العقدة الكبرى[4]، نسميه العقيدة، وينشأ عنه الإيمان، وينشأ عنها أن يتحرر الإنسان من اللاأدرية، ومن الانحطاط، ليرقى في معارج النهوض والارتقاء للمكانة السامقة التي كُرِّمَ لأجلها!

وتشكل الإجابة على هذه التساؤلات حلا للعقدة الكبرى ينشأ عنه **فكرة كلية** نسميها **العقيدة**، إذ إن القلب سينعقد عليها بعد أن تفكَّر العقلُ فيها، ولأن هذه الفكرة تحل العقدة الكبرى وتجيب على أسئلتها المصيرية فإنها بطبيعتها ستكون **أفكاراً أساسية**، أي ستكون مقياساً للأفكار والتصرفات، تتفرع عنها أفكار فرعية، تترتب عليها، وتنبثق عنها، وستشكل دافعا للإنسان لاتخاذ مواقف مبدئية في الحياة، أي ستنبثق عنها أو تبنى عليها "تشريعات" تضبط **السلوك** الفردي **والعلاقات** المجتمعية، والدولية وتحدد **طريقة العيش**!

من هنا كانت العقيدة هي الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة، وعما قبلها وما بعدها، وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها، فالعقيدة هي فكرة أساسية عن إنسان يحيا في الكون، وهذه الفكرة الأساسية، **بحكم تناولها للقضايا المصيرية والأساسية حول الإنسان والكون والحياة** لا تكون إلا **كُلِّيَّة**،

ولا بد للعقيدة الكلية من أن تحوي إمكانية انبثاق نظام عنها ينظم علاقات المجتمع على أساسه[5]، ليضمن حسن انضباط أفراد المجتمع وفق نظام مخصوص منبثق من عقيدة **آمنوا بها**، يقضي بين الناس حين تتعارض مصالحهم أو تتضارب نظرتهم لهذا النظام، ويبين لهم ما يصلح مجتمعهم واجتماعهم من نظام، أي يحدد لهم ما يسمى ب"المصلحة العامة"، التي ستكون أساساً لجلب المصالح ودرء المفاسد بصورة صحيحة لا تتأثر بأهواء فئة على حساب فئة، أو بنظرة فئة قاصرة تتعارض مع نظرة فئة أخرى، وإلا فالعقيدة التي لا ينبثق عنها نظامٌ للحياة أو إن لم يكن النظام المنبثق عنها شاملاً لمناحي الحياة كلها (فوق الأحوال الشخصية والعبادات مثلا)، لن تعدو أن تكون عقيدة روحية كهنوتية، فلا تصلح لتسوس الناس وتهديهم سبيل نهضتهم، ولا تكونُ **كُلِّيَّةً** إن لم تحو **مقاييساً** وأحكاماً مرجعيةً **لمشاكل الإنسان والمجتمع**،

---

[3] ألا ترى أنك لو أردت السفر إلى القمر، فإن عليك أن تتهيأ لنظام غير مصمم لاستقبال الإنسان، فتتدارك حاجتك للأوكسجين والوقاية من الأشعة الضارة والنيازك المنهالة، ولانعدام الجاذبية، لتتذكر كيف أن الأرض هيئت لاستقبالك، فلم تحتج فيها لإجراءات مماثلة يتوقف عليها وجودك!

[4] قال ابن منظور في لسان العرب: "العَقْد نقيض الحَلِّ؛ عَقَدْتُ الحبْلَ والبيع والعهد فانعقد والعَقْد العهد, والجمع عُقود وهي أَوكد العُهود. و عُقْدَةُ كلِّ شيءٍ: إبرامه. وقال ابن الأَنباري: في قولهم لفلان عُقْدة: العقدة عند العرب الحائط الكثير النخل. ويقال للقَرْية الكثيرة النخل: عُقْدة، وكأَنّ الرجل إذا اتخذ ذلك فقد أَحكم أَمره عند نفسه واستوثق منه، ثم صيروا كل شيء يستوثق الرجل به لنفسه ويعتمد عليه عُقْدة. ويقال للرجل إذا سكن غضبه: قد تحللت عُقَدُه واعتقد كذا بقلبه وليس له معقودٌ أَي عقدُ رأْي. وفي الحديث: أَن رجلاً كان يبايع وفي عُقْدته ضعف أَي في رأْيه ونظره في مصالح نفسه". انتهى.

[5] يعرف المبدأ (الآيديولوجيا) بأنه عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام، فالعقيدة الكلية تعطي تفسيرا كليا لما يقع الحس عليه أو على أثره مما في الكون والإنسان والحياة، فإذا ما انبثق عنها نظام شامل لمعالجة مشاكل الحياة والمجتمع، تحولت لمبدأ، يصلح أساسا لإنهاض المجتمعات.

ومن جهة أخرى، **فإن المجتمع الذي لا تتصل أنظمته بالعقيدة التي يؤمن بها لن يجد الدو افع الذاتية للالتزام بالأنظمة**، وسيعيش تناقضاً بين ما تمليه عليه عقائده وما يعيش من نظم غير متصلة بها.

ولأن أسئلة العقدة الكبرى هذه أساسية إذ إنها لا تبنى على أفكار أخرى سبقتها، فهي وحدها التي تنتج **مبدأ**، تُبنى عليه الأفكارُ الأخرى، فما لم يوجد عند المرء فكرٌ عن نفسه وعن الحياة وعن الكون من حيث الوجود والإيجاد، والغاية والمصير، والتنظيم والتدبير، لا يمكن أن يعطي **فكراً يصلح أساساً لحياته**، ولذلك تبقى حياتُه سائرةً دون أساس، مائعةً، متلونةً، متنقلةً، مرتحلة من النقيض للنقيض، ما لم يوجد هذا الفكر الأساسي، أي ما لم توجد الفكرة الكلية عن نفسه وعن الحياة وعن الكون.

ولأن كل الأفكار التي تدخل فيما تفرع عن هذه الأجوبة من نظام تبنى عليها، كانت فكرة كلية أساسية فهي وحدها تسمى مبدأ، وهكذا أطلقت كلمة مبدأ على الفكرة الشاملة وأنظمتها، أي العقيدة ومعالجاتها؛ ويقابل كلمة المبدأ كلمة الآيديولوجيا بالتعبير الغربي.

إلا إن هذه العقيدة لا يمكن أن تنبثق عنها أفكارٌ، ولا أن تبنى عليها أفكارٌ إلا إذا كانت هي فكراً، أي كانت نتيجة بحثٍ عقليٍّ؛ أما إذا كانت تسليماً وتلقّياً، فلا تكونُ فكراً، ولا تسمى فكرةً كليةً، وإن كان يصح أن تسمى عقيدة (كالعقيدة النصرانية مثلا، وإن لم تكن عقليةً). ولذلك كان لا بد أن تكون الفكرة الكلية قد توصل إليها الإنسان عن طريق العقل، أي أن تكون نتيجة بحثٍ عقليٍ، فتكون حينئذ **عقيدة عقلية**، وحينئذ تنبثق عنها أفكارٌ وتبنى عليها أفكارٌ. وهذه الأفكار هي معالجات لمشاكل الحياة، أي هي الأحكام التي **تنظم للإنسان شؤون الحياة**.

ومتى وجدت هذه العقيدة العقلية وانبثقت عنها أحكام تعالج مشاكل الحياة فقد وجد المبدأ. ولذلك عرف المبدأ بأنه عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام.

وحيث إن الإسلام جعل العقيدة فكرة **كلية**، فهي بذا تعطي جواباً **عن كل شيء**، ليشكل مفهوماً يتخذه الإنسان مقياساً إزاء **الو اقع** الذي يريد التعامل معه، **فيقوده هذا المقياس في غمرات الحياة قيادةً فكريةً**، بحيث تعطي مفاهيم العقيدة عن الحياة معالجات لمشاكل الحياة، أي تعطي **أحكاماً تنظم للإنسان شؤون حياته**. من هنا ربط النظام الإسلامي بين الواقع وبين الحلول اللازمة لمعيشة الإنسان.

رقي المسلم ونهضته

يدخل الإنسان هذه الحياة خالياً من العلم، مزوداً بأدوات الإحساس التي تنقل له صورة الواقع ليفكر فيه ويفسره، وقد أمرَ القرآنُ الإنسانَ **بالتفكير**، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ البقرة [164]، ولقد وجدنا القرآن الكريم يشدد على بناء العقيدة على العقل والتفكير والتدبر، فَحَرَّمَ بناء العقيدة بكلياتها وبجزئياتها على الظن؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس 36]، وفي هذه الآية نهي عن اتباع أو تبني الفكر العقدي -

وهو أصل الدين الذي ينبثق عنه كل فكر- إلا عن طريق الدلائل اليقينية القاطعة، لا الظن والأوهام والخرص، فَحَرَّمَ بناء العقيدة على التقليد والاتباع بغير دليل، وبالتالي لا بد لكل مسلم من أن يصل إلى اعتقاده بأحد طريقين:

أولهما: بالمحاكمة العقلية، **وثانيهما**: بالتسليم بما جاء في النقل بشرط أن يرد النقل بأدلة قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وأن يثبت أصله بالعقل.

وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تخص التفكير والعقل بصيغ وألفاظ ومعان مختلفة جميعها تدعو العقل إلى النظر والتأمل دعوة صريحة ومباشرة وفيها تضمُّنٌ لمشتقات العقل ووظائفه، ويخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابة العزيز أصحاب العقول بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ(99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس [99-101]، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر [9]، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الرعد [19]، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ سورة ص [29]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة [242].

ولا شكَّ أنّ تفضيلَ الإنسانِ على سائرِ المخلوقاتِ إنما هو لعقلِهِ، وأن التفاضلَ بين الناسِ إنما هو بتفاضلِهم باستعمالِ هذا العقلِ بما يرقى بسلوكِهم ويقيمُ علاقاتِهم بغيرِهم،

يقولُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70]. والإنسانُ الناهضُ الراقيْ كما الأمةِ الناهضةِ: الإنسانُ المفكرُ والأمةُ المفكرةُ، وعكسُهُ هو الإنسانُ المنحطُّ والأمةُ المنحطةُ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 4-6]. فالإنسانُ المسلمُ يرتفعُ بالإيمانِ وعملِ الصالحاتِ من الانحطاطِ، من مكانةِ أسفلِ سافلينَ. قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: 44].

وهذه حقيقةٌ، إذْ إننا نعلمُ أن النهضةَ هي الارتفاعُ الفكريُّ فحسْبُ، أيْ أنّ الإنسانَ يرقى حسْبَ الآياتِ باستعمالِهِ العقلَ للتفكرِ. وبالمثلِ فإنّ الأمةَ الناهضةَ هي التي تفكرُ وتَعِي، وهي التي تتخذُ مبدأً يتمثلُ في عقيدةٍ عقليةٍ ينبثقُ عنها نظامٌ يصوغُ حياتَها.

وبالرجوعِ إلى كتابِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى نجدُ دوماً في خطابِ العقيدةِ التركيزَ الشديدَ على التفكرِ والتدبرِ والتعقلِ ليصلَ الإنسانُ إلى صدقِ العقيدةِ الإسلاميةِ، بلْ إنّ الحقَّ سبحانَهُ جعلَ استعمالَ العقلِ هو الفاصلَ بينَ الناجي من النارِ والفائزِ بالجنةِ: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: 171] ولو عقَلوا لاهتدَوْا، ولوِ استَعمَلوا السمْعَ والأبصارَ والألسنةَ لَفَقِهوا وفهمُوا إذْ هي وسائلُ نقلِ الحسّ بالواقعِ إلى الدماغِ

ليحكمَ من خلالِها على الواقعِ، قالَ تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: 242] وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ** (22) **وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: 22-23] وقالَ جلَّ وعلا: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [يونس: 42]. فمَنْ لا يعقلُ فلنْ يتوصلَ إلى الحقِ، فجعلَ الحقُّ –سبحانَهُ- العقلَ وسيلةَ الوصولِ إلى الهدايةِ أيْ إلى النجاةِ.

وسأكتفيْ بهذه الآيةِ الكريمةِ التي تُغْنِي في البحثِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** (99) **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ** (100) **قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: 99 - 101].

فالأساسُ الذي تقومُ به العقيدةُ هو العقلُ بمعنى التفكرِ والتدبرِ ليصلَ إلى أن العقيدةَ الإسلاميةَ هي الحقُّ، أيْ استعمالُ العقلِ للوصولِ لحقائقِ الإيمانِ، ولذلكَ نقولُ إن العقيدةَ الإسلاميةَ عقيدةٌ عقليةٌ، أيْ أن العقلَ هو طريقُ الإيمانِ حتى يتوصلَ المرءُ إلى صدقِ الإسلامِ ومِنْ ثَمَّ يجعلَ العقلَ وسيلةً لفهمِ ما أمرَ به الشرعُ، فالعقلُ يؤمنُ ثُمَّ يفهمُ ولا حكمَ له على الشرعِ.

وعن أبي الضحى قولُه في آيةِ ﴿والـهُكُمْ إلهٌ واحدٌ﴾ الآيةَ: «لما نزلتْ هذه الآيةُ عَجِبَ المشركونَ وقالوا: إن محمداً يقولُ: والـهُكُمْ إلهٌ واحدٌ﴾ فليأتِنا بآيةٍ إنْ كانَ من الصادقِينَ. فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: 164]».

فالعقلُ إذنْ يوصِلُ الإنسانَ إلى حَلِّ العقدةِ الكبرى وإيجادِ القاعدةِ الفكريةِ التي يَبنيْ عليها تنظيمَ حياتِه ألا وهي العقيدةُ، ومِنْ ثَمَّ تتميزُ العقائدُ إلى عقليةٍ وغيرِ عقليةٍ.

ثم بعدَ وجودِ العقيدةِ تصبحُ هي القاعدةَ الفكريةَ التي يبني عليها المسلمُ أفكارَهُ، ويُكَوِّنُ على أساسِها مفاهيمَهُ، فيُميِّزُ الأفكارَ الصحيحةَ من الأفكارِ الخاطئةِ عندما **يقيسُها بالعقيدةِ الإسلاميةِ**، فتتكوَّنُ عنده العقليةُ المتميزةُ بهذه العقيدةِ، ويوجَدُ لديه المقياسُ الصحيحُ للأفكارِ، فيأمنُ زَلَلَ الفكرِ.

الغرائز والحاجات العضوية وعلاقتها بالسلوك:

خَلَقَ اللهُ تَعالى الإِنْسَانَ، وخلقَ في كلِّ إنسانٍ خاصياتٍ معينةً لا يمكن محوها نهائياً من هذا الكائن الحي -نتيجةً لوجود سرّ الحياة فيه- **<u>تدفعه إلى الميل للقيام بأفعالٍ أو الميل للإحجام عن أفعالٍ</u>**، منها ما لا يمكنه إلا أن يشبعها، (الحاجات العضوية، كالنوم والأكل والتنفس)، ومنها ما لو لم يشبعها بقي قلقاً، (كالغرائز، والتي من مظاهرها الخوف والميل الجنسي)، فما كان جزءاً من ماهية الإنسان ولا يمكن محوه ولا كبته وصفناه بأنه خاصية، ويتمثل بالغرائز والحاجات العضوية، وما أمكن محوه أو كبته سميناه مظهراً من مظاهر هذه الطاقة الحيوية، (كمظهر الخوف أو الشجاعة من غريزة حب البقاء).

وبالنظر إلى هذه الخاصيات والمظاهر رأينا أنها تفترق إلى طائفتين بحسب علاقتها بالإشباع، والمؤثر الذي يثيرها، **<u>فالحاجات العضوية</u>** تُثار من الداخل عند جوعة الإنسان إلى النوم أو إلى الطعام والشراب وما إلى ذلك مما لو لم يقم به وصل به الحال إلى الموت، فكان إشباعها حتمياً، وإثارتها تأتي من الداخل.

وأما **الغرائز** فتُثار بمؤثر من الخارج، وهي ما كان إشـباعها ككل وإن كان حتمياً، بمعنى أن الإنسـان لا بد وأن يشـبع مظهراً من مظاهرها على حساب مظهر آخر، (مثلا الخوف والشجاعة مظهران لغريزة البقاء، فيشبع الشجاعة على حساب الخوف مثلا). والغرائز توجد على هيئة مظاهر، يمكن تجميعها في مجموعات ثلاث، غريزة الحفاظ على النوع، وغريزة البقاء، وغريزة التقديس أو التدين، وإشـباع هذه المظاهر (الخوف، الشـجاعة، الميل للجنس الآخر، حنان الأم ... الخ) ليس بحتمي ولا يفضي عدم إشباع آحادها إلى الموت، بل يمكن كبت بعض هذه المظاهر كلية.

وهذه المجموعات الثلاث هي:

1- غريزة البقاء، وهي مظاهر الخوف، والشـجاعة، وحب التملك وحب الاسـتطلاع، وحب الوطن، وحب القوم، وحب السيادة، وحب السيطرة وغيرها، ترجع كلها إلى **غريزة البقاء** لأن هذه المظاهر تؤدي إلى أعمال تخدم بقاء الإنسان كفرد.

2- **والنوع الثاني** من هذه المظاهر، كالميل الجنسـي، والأمومة، والأبوة، وحب الأبناء، والعطف على الإنسـان، والميل لمساعدة المحتاجين، وغيرها، ترجع إلى **غريزة النوع**، لأن هذه المظاهر تؤدي إلى أعمالٍ تخدم بقاء النوع الإنسانيّ كنوعٍ وليس كفردٍ.

3- **والنوع الثالث** من هذه المظاهر كالميل لعبادة الله، والميل لاحترام الأبطال، والشـعور بالنقص والعجز والاحتياج، وحب الظهور والشـهرة، وغيرها، ترجع إلى **غريزة التدين والتقديس**، لأن هذه المظاهر تدفع الإنسـان إلى البحث عن خالق قادر كامل، لا يستند في وجوده إلى شيء، وتستند المخلوقات في وجودها إليه[6]، أو إلى تقديس واحترام ما يَجْبر عجز الإنسان باحترام الأبطال والمتفوقين، أو البحث عن الشهرة والمكانة.

والغرائز الثلاث موجودة في الإنسـان، ولا يمكن القضـاء عليها، ولا أن يسـلبها الإنسـانُ من الإنسـان، وتختلف مظاهر الغرائز وجوداً وعدماً، قوةً وضـعفاً من شـخص لآخر، ولكن بعض مظاهر الغريزة الواحدة يمكن كبتها أو محوها وإحلال أحدها محل الآخر، فيمكن أن يحل حب الزوجة محل حب الأم، وحب السيادة محل حب التملك، وتقديس البشر والأصنام محل عبادة الله، ولكن لا يمكن محو الغريزة كلها واسـتئصـالها من الإنسـان، لأن الغريزة جزء من ماهية الإنسـان، بينما المظهر الغريزي ليس جزءاً من ماهية الإنسان.

وهذه كلها لا تتغير في الإنسـان كإنسـان بين زمانٍ ومكانٍ، فالإنسـان في الصـين يحتاج للطعام وللنوم ويقلق إن لم يشـبع غريزة النوع سـواء من خلال الزواج أو العلاقات غير المشـروعة، أو حنان الأم، ولا يختلف هذا عن الإنسـان الذي عاش في الصين أو في أميريكا منذ ألف عام أو سيأتي على الدنيا بعد ألف عام.

وحين يشبع مظهر التملك ببيع سلعة معينة أو بتأسيس شركة تنتج سلعة معينة يريد أن يبيعها ليحصل على المال، فإن عملية البيع هذه مبادلة للسلعة بين طرفين بناء على عقد يتفقان عليه، ويحصل المشتري على السلعة بدفع الثمن، وسواء أباع خِرافاً قبل ألف عام، أو سـيبيع أجهزة كمبيوتر، أو سـيارة كهربائية اليوم، فإن عملية البيع هي هي، ترجع في أصـلها لقضـاء غرائز (مظهر التملك من غريزة حب البقاء، أو للحصـول على المال لإشـباع جوعة المعدة مثلا، أو لشـراء الأثاث والطنافس لإشـباع غريزة التقديس من خلال اكتسـاب احترام الذات أو الغير، أو الشـعور بالسـعادة، أو الراحة التي هي

---

[6] محمد حسين عبدالله، مفاهيم إسلامية الجزء الأول ص 7

حاجة عضوية، وغيرها، (بناء على تحليل دوافع كل منهما في المعاملة، فمن اشترى خروفا سيشتريه ليشبع حاجة عضوية.)).

وهكذا يمكن إرجاع كل تصرف إلى دافع من غريزة أو حاجة عضوية، بحسب الغايات والأهداف التي ينتهي إليها التصرف.

والمشاهد المحسوس أن الإنسان إذا عزف عن الطعام لفترة معينة هلك، هكذا كان وهكذا سيكون إلى يوم الدين، بحاجة لطاقة يستمدها من طعام أو من أدوية أو حقن أو ما شئت، ولكنه لا يستغني عن الطاقة التي تعينه على العمل والسعي في الحياة الدنيا، من هنا فلا أثر للزمان في تغير الأفكار التي تُسير سلوكه، طالما أن الدافع للسلوك لم يتغير، ولا يلحظ أي تأثير للوقت فيه.

"فالغريزة: خاصية فطرية موجودة في الإنسان من أجل المحافظة على بقائه، ومن أجل المحافظة على نوعه، ومن أجل أن يهتدي بها إلى وجود الخالق، وهذه الغريزة لا يقع الحس عليها مباشرة، وإنما يدرك العقل وجودها بإدراكه مظاهرها.

أما كيف يدرك الإنسان انتماء مظهر من المظاهر إلى غريزة من الغرائز، فإنه يدرس واقع المظهر، فإن كان المظهر ميلاً أو إحجاماً ينتج عنه عملٌ يخدم بقاء الإنسان ذاته، فإن هذا المظهر ينتمي لغريزة البقاء، كالخوف والشجاعة، والبخل وغيرها، وإن كان المظهر ينتج عنه عملٌ يخدم بقاء النوع الإنساني كان هذا المظهر ينتمي لغريزة النوع كالحنان والعطف والميل الجنسي وإنقاذ الغريق، وغيرها.

وإن كان ينتج عن المظهر عمل يخدم شعور الإنسان بالعجز وبحاجته إلى الخالق، كان هذا المظهر ينتمي لغريزة التدين والتقديس، كالخوف من اليوم الآخر، وكالميل لاحترام الأقوياء، وكالإعجاب بنظام الكون وغيرها.

فالمظهر غير العمل، فالميل للتملك غير التملك، لأن الميل للتملك شعور في نفس الإنسان تجاه الأشياء لضمها إليه وحيازتها، بينما التملك هو القيام بالعمل. كشراء سيارة أو سرقة مال، فالمظهر لا يشبع الغريزة، وإنما العمل الذي يدفع إليه المظهر هو الذي يشبع الغريزة أو يحقق جزءاً من الإشباع ... فالميل لإرضاء الله غير العبادة، لأن العبادة تشبع غريزة التدين، بينما مجرد الميل لا إشباع منه ... والميل الجنسي لا يشبع غريزة النوع، بينما جماع الرجل المرأة يشبع بعض هذه الغريزة، وإن تكرر هذا الجماع بينهما دون إنجاب أطفال، أصبح هذا العمل غير مشبع للغريزة من جهة هذا المظهر، لأن الأصل في العمل الناتج عن المظهر أن يخدم الغريزة التي ينتمي إليها هذا المظهر ... فالجماع دون إنجاب لا يتحقق فيه الإشباع الكامل، لأنه لا يؤدي إلى استمرار بقاء النوع الإنساني، فلا يخدم غريزة النوع."[7] انتهى

فالفروق بين الغرائز ومظاهرها أن الغريزة جزء من ماهية الإنسان فهي خاصية من خواصه، بينما مظهر الغريزة ليس بخاصية، وبالتالي فلا يمكن محو الغريزة ككل من الإنسان، ولا بد أن تظهر بأي مظهر من مظاهرها، بينما يمكن محو مظهر من مظاهرها كلية، فيُغلِّبَ مظهراً على مظهر.

وهنا قد يمثل البعض بإثارة الحاجة العضوية والغريزة من الخارج بمثال الشبعان الذي يرى طعاما فيسيل له لعابه ويهم بأكله، فيقولون بأن الحاجة العضوية أثيرت من الخارج، والواقع أن هذه الإثارة لم تكن نابعةً من الحاجة العضوية، بل من مظهر غريزة البقاء المتمثل في حب التملك.

---

[7] محمد حسين عبد الله، مفاهيم إسلامية الجزء الأول ص 7

لاحظ أن الأم مستعدة للتضحية بنفسها فداء لولدها، مما يعني بقاء النوع لا بقاء الفرد، فهي من مظاهر غريزة النوع لا البقاء، ثم لاحظ أنك قد تحترم شخصاً، وهذا الاحترام أبداً ليس لأنك تخافه، لأن الخوف مظهره الملق أو الهروب أو الدفاع، وهذا يناقض الاحترام، -كما يقول الأستاذ محمد أبو وائل-، فالشعور بالاحترام لا علاقة له بالحرص على ذات الإنسان ولا باستمرار النوع البشري، وإنما هو مظهر لغريزة ثالثة وهي التدين.

والمظهر الذي يظهر به هذا الشعور بالنقص والعجز الطبيعي في الإنسان وحاجته إلى الخالق المدبر، هذا المظهر هو التقديس، وقد يظهر التقديس بمظهره الحقيقي من خلال عبادة الله تعالى أو يظهر بأقل وأدنى صورة أي بالتبجيل والاحترام والإعجاب.

الشخصية الإسلامية[8]:

يقوم الإنسان بأعماله ليشبع غرائزه وحاجاته العضوية، ومجموع هذه الأعمال هو سلوك الإنسان، وهذا السلوك مرتبط بمفاهيم الإنسان عن الأشياء والأفعال والحياة. والسلوك هو الذي يدل على شخصية الإنسان، ولا دخل لهندامه، أو شكله، أو لونه، أو جنسه في شخصيته.

فالشخصية هي طريقة عقل الإنسان للواقع، وهي أيضاً ميوله نحو الواقع.

وبمعنى آخر شخصية الإنسان هي عقليته ونفسيته. فما هي العقلية؟ وما هي النفسية؟

العقلية:

يحس الإنسان بالواقع، فيربط هذا الواقع بالمعلومات السابقة الموجودة لديه عن هذا الواقع، ثم يحكم على هذا الواقع بناء على القاعدة الفكرية التي يتخذها مقياساً له في تفكيره.

و"للتفكير شروط أربعة[9]، هي:

1. واقع موجود. 2. حواس سليمة. 3. دماغ صالح للربط. 4. معلومات سابقة.

وحيث إن دماغ الإنسان قد أوجد الله فيه **<u>خاصية التفكير</u>**، وهي القدرة على فهم الأشياء والوقائع والحوادث المحسوسة من خلال <u>تفسيرها بالاستناد إلى عملية تفكير ذكية تجري في الدماغ</u>. والواقع المحسوس يعتبر ابتداء <u>واقعًا غامضًا غير مفهوم للمفكر ، ويراد من العقل أن يفهم هذا الواقع من خلال تفكيكه أو تحليله إلى أجزاء أدنى منه، بشرط أن تكون هذه الأجزاء المفككة معروفة سابقاً لدى الإنسان أي لديه معلومات سابقة عنها، وبعد عملية التفكيك تجري عملية أخرى في الدماغ لتركيب أو ربط هذه الأجزاء ببعضها لتكوين نموذج جديد لهذا الواقع يفهمه العقل</u>.

---

[8] الشخصية الإسلامية، الجزء الأول، النهضة: حافظ صالح، مفاهيم إسلامية، محمد حسين عبد الله.

[9] راجع كتاب: التفكير للأستاذ تقي الدين النبهاني رحمه الله رحمة واسعة، والأستاذ يوسف الساريسي.

فعملية التفكير التي تجري داخل الدماغ تكون بربط[10] مكونات أو أجزاء الواقع ببعضها لتكوين نموذج جديد مركب من مجموع هذه المكونات، وهذه المكونات للواقع تكون في الأساس معلومات سابقة مختزنة في دماغ المفكر. والنموذج الجديد نسميه الحكم على الواقع أو هو النموذج الذي يفسر الواقع ويجعله مفهوما لدى العقل بعد هذه العملية الفكرية.

وعملية الربط التي تجري في الدماغ هي عملية ذهنية يستطيع الدماغ من خلالها إيجاد علاقات معينة بين الأجزاء أو إيجاد أواصر وروابط تجمع المكونات مع بعضها لتشكيل كيان ذهني للواقع يمكن فهمه.

فمثلا: لو أردت الحكم على شيء ما هو؟ لنقل مثلا لو أردت فك رموز حجر رشيد، والذي يحتوي على مرسوم صدر في ممفيس مصر، في العام 196 قبل الميلاد نيابة عن الملك بطليموس الخامس، ويظهر المرسوم في ثلاثة نصوص: النص العلوي وهو اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية المصرية، والجزء الأوسط نص الديموطيقية، والجزء الأدنى اليونانية القديمة، والحجر يقدم أساساً نفس النص في جميع النصوص الثلاثة (مع بعض الاختلافات الطفيفة بينها)، ويعطي الحجر مفتاح الفهم الحديث للهيروغليفية المصرية.

واللغات الثلاث التي كان قد كتب بها تعتبر من اللغات الميتة، فكيف سيتسنى فك رموزه؟

نحن أمام مشكلة ضخمة، وهي غياب المعلومات السابقة التي تفسر هذه الرموز والأشكال والحروف والكلمات التي لها معان معينة عند أصحابها، وبدون هذه المعلومات السابقة لا يمكن إجراء أي عملية فكرية صحيحة لفهم تلك اللغات، وهذا يثبت قطعا استحالة عملية الربط الذكي بدون وجود المعلومات السابقة،

جاء الفرنسي **جيان فر انسوا شامبليون** وفسر هذه اللغات بعد مقارنتها بالنص اليوناني (المعروف) ونصوص هيروغليفية أخرى، وكانت الهيروغليفية اللغة الدينية المقدسة متداولة في المعابد، واللغة الديموطيقية كانت لغة الكتابة الشعبية (العامية المصرية)، واليونانية القديمة كانت لغة الحكام الإغريق، وكان قد تُرجم إلى اللغة اليونانية لكي يفهموه،

وكان البريطاني **توماس يانج** قد اكتشف أن الكتابة الهيروغليفية تتكون من دلالات صوتية، وأن الأسماء الملكية مكتوبة داخل أشكال بيضاوية (خراطيش)، وهذا الاكتشاف أدى إلى أن فك الفرنسي **جان فر انسوا شامبليون** رموز الهيروغليفية عام 1822 م، لأن النص اليوناني عبارة عن 54 سطراً وسهل القراءة مما جعله يميز أسماء الحكام البطالمة المكتوبة باللغة العامية المصرية، ومن ثم اتضحت معالم الأبجدية الهيروغليفية وفكت أسرارها، ولولا وجود النص اليوناني لما استطاع أحد فك تلك الرموز، وإجراء أي عملية عقلية على ذلك الحجر.

فالعملية العقلية كما ترى تفكيكٌ وربطٌ بمعلوماتٍ سابقةٍ مخزنةٍ تشبهُ وتحاكي هذا الواقع، والبحثُ عن روابط بين هذا الواقع وهذه المعلومات.

من هنا نرى أهمية وجود المعلومات السابقة في تفسير وإدراك كُنْه الأمور التي يجري التفكير فيها، فلم يستطع شامبليون قراءة حجر رشيد إلا بعد الاستعانة بمعارفه السابقة باللغات الأخرى التي كُتب بها حجر رشيد؛ لا سيما اللغة اليونانية،

وكما يقول الدكتور الريان "المعلومات السابقة المتعلقة بالواقع موضع التفكير تعتبر العنصر الرابع في هذه العملية ومن دونها لا تحصل عملية التفكير ويكون الموقف مجرد إدراك غريزي شعوري يشبه موقف الحيوان الأعجم أمام كومة

[10] يوجد نوعان من الربط هما: الربط الاسترجاعي، والربط الذكي في الدماغ. وسيأتي تفصيلهما بعد قليل بإذن الله.

من الأعشــاب، أو موقف إنســان أمام كتاب لا يعرف لغته، فكلا الموقفين لا تحصــل فيهما عملية التفكير ولا يترتب عليهما معرفة، لأن التفكير لا يتم إلا بالربط بين الواقع والمعلومات؛ ولا يتم بمجرد وجود الإحساس بالواقع"،[11]

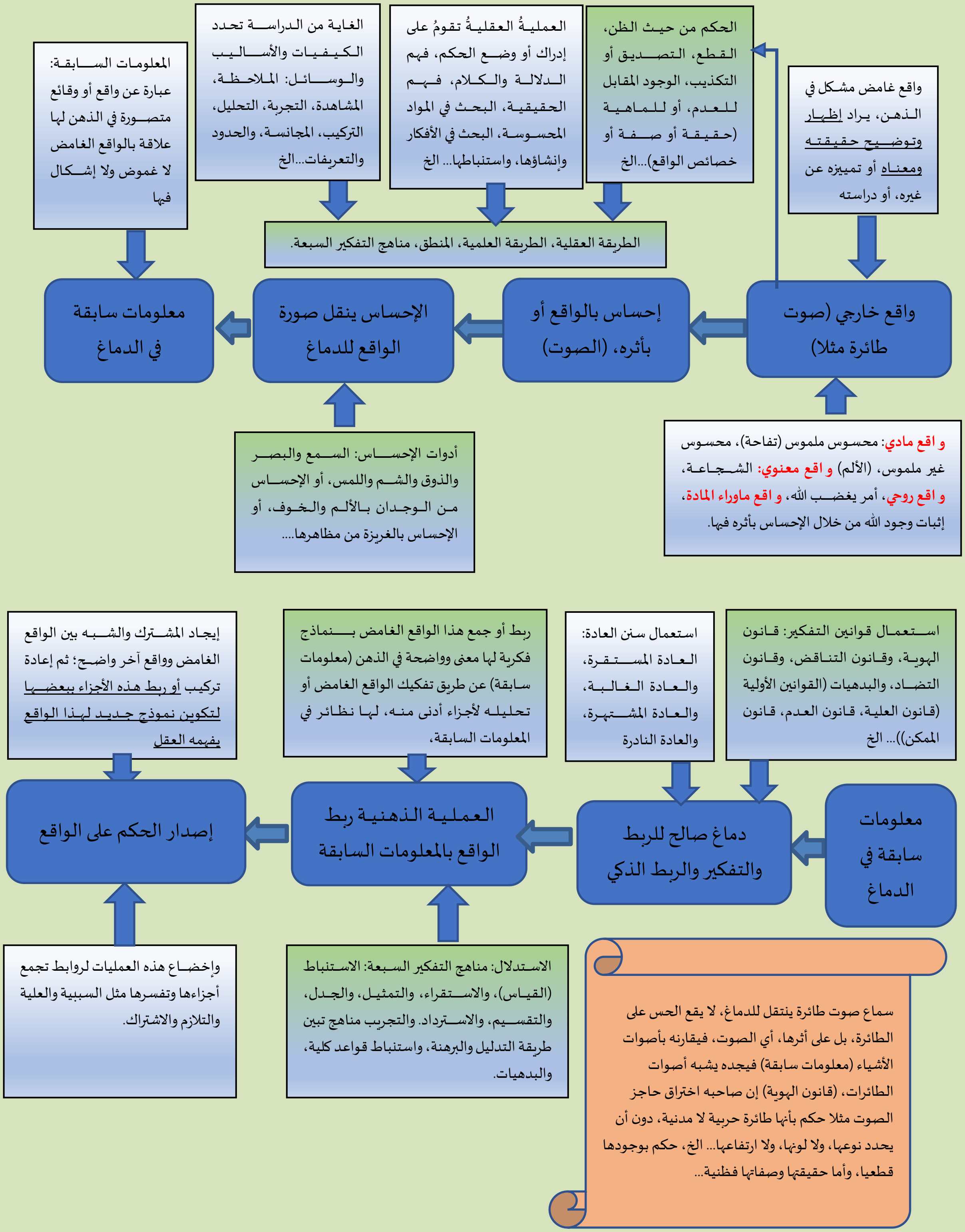
"ولا بد من التفريق بين الآراء الســابقة [والأحكام الســابقة] والمعلومات الســابقة، والمطلوب هو المعلومات، لأن الآراء شخصية تتعلق بأشخاص معينين، بينما المعلومات شيئية تتعلق بالأشياء التي تكون مجالاً للتفكير"[12]

وعليه فالعقل، أو الفكر، أو الإدراك، أو الطريقة العقلية في التفكير هي: (نقل الحس بالواقع بواســطة الحواس إلى الدماغ ووجود معلومات ســابقة يفسَّــر بواســطتها هذا الواقع.) ونلاحظ من هذا التعريف أن جوهر عملية التفكير هو التفسير، أي أن التفكير يعني تفسير الواقع.

عند ربط الواقع بالمعلومات، أي تفســير الواقع، وإصــدار الحكم عليه، أو ربط المعلومات بالواقع، ومن ثم يتم الربط هذا حســب القاعدة الفكرية (أي المقاييس، إذ إن الإنســان يتخذ من القاعدة الفكرية مقياســاً للحكم على الأشــياء)، أي تجري عملية قياس **حينذاك: تتكون المفاهيم**، وبهذه الصــورة تتكون عند الإنســان عقلية تفهم الواقع (الألفاظ، والجمل، وتدرك المعاني) بواقعها المشــخَّص، أي حســب إدراكها وإصــدار الحكم عليها، (المفاهيم معاني الأفكار مجســدة في الذهن كواقع مدرك محسـوس أو متصـور، مصـدق)، وحتى يتم التصـور والتصـديق لتتجسـد الأفكار أو تشخص، فلا بد من واقع محسوس، مع معلومات (أفكار) يدرك بها كُنهُ الواقع، والفكر عن هذا الواقع، حينئذ تتحول الأفكار إلى مفاهيم.

[11] محمد هاشم الريان: "فلسفة التعليم من منظور إسلامي"، عمان، 1985 ص 100.

[12] محمد هاشم الريان: "فلسفة التعليم من منظور إسلامي"، عمان، 1985 ص 101. والأصل أن يتحرر الإنسان عند البحث والسعي لتكوين رأي أو إصدار حكم أن يتحرر من الأحكام والآراء السابقة التي يحملها بشأن الأمر موضع البحث، وإلا كان منحازاً لرأيه وساعياً لإثبات وجهة نظره وحسب، دون البحث نحو الحكم بشكل مجرد، وهذا هو الانحياز المذموم في مجال البحوث العلمية، وهو أمر .للأسف .يقع فيه الكثير من الباحثين.



جوهر عملية التفكير هو التفسير، التفكير يعني تفسير الو اقع.

مخطط العملية العقلية، التفكير!

أفكـــار أســاسـيـة/ مقاييس

- العقـدة الكبرى: التسـاؤلات الكبرى، التـفكـير في الكون والإنسان والحياة، ← العقيدة: فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، وما قبلها وما بعدها، وصلتها بما قبلها وبما بعدها
- فكر أساسي: أي الفكر الذي ليس قبله فكر. وهو فكر شمولي: يبحث الإنسان كإنسان فيشمل كل أفراده. وهو كلي، بمعنى احتوائه على مقاييس وأحكاماً مرجعيةً لمشاكل الإنسان والمجتمع.
- مفاهيم عن الكون والإنسان والحياة ← عقيدة ← قاعدة فكرية تقاس عليها مفاهيم الإشباع = وجهة النظر عن الحياة نتجت عن المقاييس التي حددتها العقيدة.
- العقلية: الكيفية التي يجري عليها عقل الشيء، أي إدراكه، أي كيفية ربط الواقع بالمعلومات، أو المعلومات بالواقع بقياسها إلى قاعدة فكرية

أفكار فرعية: تتعلق بواقع يتعلق بإشباع الطاقة الحيوية

- الفكر = تعبير عن واقع محسوس في الخارج أو متصور في الذهن أنه موجود في الخارج، أو واقع مُسَلّم به أنه موجود بناء على واقع محسوس أي الفكر: حكم على واقع معين.
- الحكم على الواقع بإثبات مطابقته للواقع (وجوداً أو ماهية) أو نفي ذلك = التصديق، وسبقه: التصور، والتصور لا يصلح لإنتاج الأفكار
- إذا لم يدرك معنى الفكر أو لم يطابق الفكرُ الواقعَ ← لا تصديق ← معلومات فقط. إذا لم يُعقل؛ بأن لم يكن له وجود في الواقع (لم يطابق الواقع) ← لا تصور ← خرافات وأوهام.
- واقع محسوس + معلومات يدرك بها كنه هذا الواقع والفكر عنه = مفاهيم
- حتى يتحول الفكر إلى مفهوم يسير السلوك لا بد من إدراك معنى هذا الفكر + مطابقته للواقع المحكوم عليه ← يحصل التصديق بمطابقة الفكر للواقع ← يصبح الفكر مفهوماً يسير السلوك.

المفاهيم: معاني الأفكار مجسدة في الذهن كواقع مدرك محسوس أو متصور مصدق (أحكام)

- حين نربط الواقع بالمعلومات (الإدراك) + قياسها على قاعدة فكرية = (التلقي الفكري) ← معاني الأفكار أي إن الأفكار تدل على معاني موجودة في الواقع (مُشَخَّصة).
- فهم معاني الجمل والألفاظ كما تدل عليه (عقلا، ولغة) لا كما يريدها لافظها أن تكون.
- طاقة حيوية = (غرائز وحاجات عضوية) بحاجة لإشباع.
- طاقة حيوية ← دافع للإشباع، ← أفكار عن واقع يحصل به الإشباع + ربط هذا الواقع بالمعلومات.
- مفاهيم عن الإشباع = مفاهيم عن الأشياء + مفاهيم عن الحياة (خارجية عن الأشياء)
- السلوك: أعمال من أجل الإشباع، تتم بحسب الميول.

- دافع + مفاهيم عن الإشباع ← ميول
- الميول: دوافع يضاف إليها مفاهيم عن الإشباع. (المفاهيم تبلور الدوافع فتصبح: ميولاً) المفاهيم تضبط السلوك بتعيين نوع الميل نحو الدافع: ← إقبال عليه أو إدبار عنه ← ذوق خاص.

الشخصية = العقلية + النفسية

- مفاهيم عن الواقع المراد إشباعه + مفاهيم عن الحياة = عقلية
- ميول + مفاهيم عن الحياة = نفسية؛ النفسية: هي الكيفية التي يجري عليها إشباع الطاقة الحيوية (كيفية ربط دوافع الإشباع بالمفاهيم عن الحياة)
- القاعدة الفكرية التي يقيس عليها الإنسان الأفكار، والمعلومات والواقع حين الربط، ويبلور الدوافع ويشكّل الميول ← المؤثر الأكبر في تشكيل الشخصية، ونوعها.
- تجانس القاعدة وتميزها بشكل الشخصية المعينة. + هل نفس القاعدة التي يقيس عليها ميوله ودوافعه وتشكل نفسيته هي نفس القاعدة التي تشكل العقلية؟ أم تتباين؟ التباين يعني: لا تميز في الشخصية.

مخطط بناء الشخصية!

وعلى ذلك فالعقلية هي الكيفية التي يجري عليها عقلُ الشيء، أي إدراكه. وبعبارة أخرى هي الكيفية التي يربط فيها الواقع بالمعلومات، أو المعلومات بالواقع بقياسها على قاعدة واحدة أو قواعد معينة. ومن هنا يأتي اختلاف العقليات كالعقلية الإسلامية، والعقلية الشيوعية، والعقلية الرأسمالية، والعقلية الفوضوية، والعقلية الرتيبة. أما نتائج هذه المفاهيم فإنها هي التي تعيّن سلوك الإنسان نحو الواقع المدرك، وتعيِّن له نوع الميل لهذا الواقع من الاقبال عليه أو الاعراض عنه، وتجعل له ميلاً خاصاً وذوقاً معيناً.

فالمسلم يرى أن البترول الذي يشبع غريزة البقاء يجب أن يكون ملكية عامة يأخذ منها حصته كما يأخذ غيره حصصهم، فلأفراد المجتمع جميعهم حق فيه، ويرى الرأسمالي أن البترول الذي يشبع غريزة البقاء ملكية فردية، يحق له أن يتملك ما يستطيع تملكه منه دون أن يراعي حقوق الآخرين.

والمرأة الجميلة واقع يثير الميل الجنسي عند الرجل، فيحكم عليه أنه امرأة تشبع جزءاً من غريزة النوع، ولكن القاعدة الفكرية التي يتخذها الإنسان مقياساً في حكمه على الواقع تضيف للحكم الأول بعداً آخر.

فالمسلم يرى أن المرأة التي تشبع غريزة النوع هي عرض يجب أن يصان، بينما الرأسمالي يرى أن المرأة التي تشبع غريزة النوع، هي سلعة يستفاد منها في إشباع غريزة النوع، وفي تحقيق المكاسب المادية كالتجسس والدعاية وجلب الزبائن، فيحكم أيضاً أن المرأة تشبع غريزة البقاء وتحقق له قيمة مادية.

وسبب الاختلاف في الحكم الذي أطلقه المسلم والرأسمالي على البترول وعلى المرأة آت من اختلاف القاعدة الفكرية، التي يفكر على أساسها كل من الاثنين.

والعقلية الإسلامية تعقل الأشياء والأفعال وتحكم عليها بناء على القاعدة الفكرية الأساسية عند المسلم، وهي العقيدة الإسلامية، لأن الأحكام الشرعية التي تنظم علاقة الإنسان بنفسه وبربه وبغيره، ويستعملها للحكم على الأشياء والأفعال، هذه الأحكام تنبثق عن العقيدة الإسلامية، فالمسلم يحس بالواقع ثم يربط الواقع بالمعلومات السابقة فيدرك ماهية هذا الواقع، ثم يبحث عن الحكم الشرعي لهذا الواقع، ويطلقه على هذا الواقع، وهذه العملية من الإحساس إلى إطلاق الحكم الشرعي تسمى العقلية الإسلامية، فمن يسلك هذه الطريقة في إدراك الواقع والحكم عليه يحمل عقلية إسلامية، فيحكم على الصيام بأنه فرض، وعلى الصدقة بأنها مندوب، وعلى التفاح بأنه مباح وعلى التداوي بالنجس بأنه مكروه، وعلى الزنا بأنه حرام.

وحيث إن الإنسان يتميز بعقله، وسلوكه هو الذي يدل على ارتفاعه أو انخفاضه. وبما أن سلوك الإنسان في الحياة إنما هو بحسب مفاهيمه، فيكون سلوكه مرتبطاً بمفاهيمه ارتباطاً حتمياً لا ينفصل عنها. والسلوك هو أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع غرائزه أو حاجاته العضوية، ويرتبط السلوك بالميول ارتباطا عضويا حتمياً، لكن يجب أن يُسيّر الإنسانُ ميولَه بمفاهيمه، أي يضبط سلوكه بتعيين نوع الميل نحو الدافع: إقبال عليه أو إدبار عنه، وهذا يشكل ذوقه الخاص.

المفاهيم تضبط العلاقات المجتمعية، وتسير السلوك لإشباع الغرائز والحاجات العضوية:

يقوم الإنسان في هذه الحياة بأفعال تجاه الأشياء التي سخرها الله تعالى له في الكون، من أجل إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، فسلوك الإنسان وراءه دافع من حاجةٍ عضويةٍ أو غريزةٍ تدفعُه لإشباعها، فعند لجوئه إلى الله تعالى ليفرج كربه

فإنه يشــبع غريزة التدين والتقديس، وعندما يأكل إنما يأكل ليشــبع جوعة البطن، وعندما يكون متخماً ويأكل المزيد فإنما يلبي رغبته في التملك النابعة من مظهر التملك، في غريزة البقاء، وعندما يتزوج فإنه يشــبع غريزة النوع، وعندما يزني الزاني أيضا فإنه يشبع غريزة النوع إشباعا خاطئا، بالحكم عليه من خلال العقيدة الاسلامية، وهكذا،

فكل تصــرف في الحياة الدنيا إنما هو منطلق من دافع يرجع لإشــباع مظهر غريزة أو حاجة عضــوية تتطلب إشــباعا؛ **فالسلوك إذن هو أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع غرائزه أو حاجاته العضوية**.

أما المفاهيم عن الأشـياء، فهي أن الطعام والنوم، والشـراب والتنفس وما إلى ذلك تشـبع حاجة الجسـم العضـوية، وأن المرأة تشــبع غريزة الرجل، وأن الخوف من مظاهر غريزة البقاء لدى الكائنات الحية، وأن الإنســان يميل إلى إنقاذ الغريق إشــباعاً لغريزة حفظ النوع، وما إلى ذلك، فهذه كلها تكاد تكون الأفكار عنها واحدة عند البشــر، ويشــترك في وجود مثلها مع الإنســان (أي الحاجات العضــوية والغرائز) الكائنات الحية أيضــا، ولا يقول عاقل أن إنســاناً يتميز على غيره بأنه يحب الخضـروات أو أن إنسـاناً أرقى من غيره لأنه يشـرب كثيراً من الماء، ولكن الإنسـان الذي يجعل تفكيره في الحياة مقصـوراً على مثل هذه المفاهيم، ويسير سلوكه في الحياة، أي أفعاله المنبثقة عن مفاهيمه عن الأشياء بناء على تلك الأفهام عن واقع تلك الأشــياء فقط، فلا يربطها بأفكار أخرى عن الحياة لا شــك أنه إنســان منخفض. والانحطاط في الســلوك ناتج عن النظرة الضيقة للإشباع الفردي أو العائلي أو القومي فكلما كانت النظرة أوسع للإنسان كانت أرقى وأنهض!

لذلك ففهم واقع الشـيء (ماهيته، حقيقته، خصـائصـه وصـفاته)، يرجع للعقل، ويتم بالمشـاهدة أو بإخضـاع الأشـياء للتجربة، ونتيجة هذه التجارب ظنية، تقارب في التوصـل إلى الماهية، ولكنها لا تصـل اليقين[13]، وينتج عن عملية ربط الواقع بالمعلومات الســابقة عنه في الدماغ، وإنتاج الفكر الذي يفســر هذا الواقع ما هو! على أن الفكر الناتج عن ماهية الأشــياء فكرٌ ظني لا يحيط بها بشـكل قطعي، لأن مادته حقائق الأشـياء وصـفاتها والتجربة والقياس فيهما نسـبة مهما تضـاءلت من الخطأ، بخلاف الفكر الذي يبحث في وجودها المقابل للعدم، فهو قطعي. وهذا الفكر عن الأشياء منخفض لا يصلح أساسا مرجعيا (مقياسا) لإقامة تشريعات تسمح وتمنع.

ويتميز الإنسان عن الحيوان في إشباعه لغرائزه وحاجاته العضوية بالعقل، فالبهائم يهمها أن تشبع جوعاتها بأية طريقة كانت، بينما يتميز الإنســان عنها بأنه يعقل، فتراه إزاء جوعة البطن مثلا ينظر للأشــياء التي تُشــبِع، فيتفكر فيها ليصــل إلى مفاهيم عن هذه الأشــياء، هل تشــبع أم لا تشــبع؟ ما هو مذاقها؟ ما الفوائد التي أرتجيها من أكلها؟ كيف أطهوها بشــكل أفضل لتحسين مذاقها أو تسهيل هضمها؟ وما إلى ذلك، فتتكون لديه مفاهيم عن الأشياء إذن، ولكنه لا يقوم بالإشباع بناء على هذه المفاهيم فقط، بل كإنسان متحضر راق، لا بد له من مجموعة أخرى من المفاهيم لا علاقة لها بالأشياء بحد ذاتها وكونها تشبع أو لا تشبع، هذه المفاهيم هي مفاهيمه عن الحياة، أي أفكاره التي وصل إليها بحل العقدة الكبرى، والتي فسرت له الكون والإنســان والحياة تفســيرا يجعل له وجهة نظر معينة عن الحياة، تضــبط أفكاره تجاه الأشــياء التي يريد التعامل

---

[13] فكم من أبحاث أثبتت ضــرر القهوة، وكم من غيرها أفادت فوائدها الجمة، وكم من بحث تبين بعد حين خطؤه، أو انطباقه على زيد وعدم انطباق نتائجه على عبيد، وهكذا!

معها، فتضبط عملية الإشباع تلك بسياج من الضوابط الفكرية التي تمنع وتسمح، فالإنسان أرقى من البهائم التي لا يضرها أن تشبع الغرائز والحاجات العضوية بأي شكل من الأشكال!

وتضبط للإنسان أفكاره التي ورثها من مجتمعه، بغض النظر أكانت عقيدة بمعنى كلمة العقيدة أم لم تكن، لكنها تتضمن قطعاً مقياساً لأفعاله يمنعه من أمور ويفرض عليه أموراً أخرى، فالمسلم مثلا أفضت به هذه الأفكار العقدية، إلى جعل الحلال والحرام مقياساً لأفعاله وتصرفاته، فيدرك أن الخنزير يشبع جوعة المعدة ولكن أفكاره عن الحياة النابعة عن عقيدته والتي لم يصل إليها بالتفكر في الخنزير ولا خطر له الخنزير ببال وهو يصل لهذه الأفكار، أقول هذه الأفكار منعته من إشباع جوعته بأكل لحم الخنزير، بينما ترى شخصاً آخر يضع نصب عينيه آخر ما توصلت إليه الأبحاث العلمية، يسمح لنفسه بأن يتناول القليل من الخمر طالما أنها فيها منافع معينة بغض النظر عن الضر الذي فيها لأن الزاوية التي نظر منها لا تراعي هكذا نوع من الأضرار، إذ إن نظرته إلى الحياة مادية بحتة، وبذا اختلف السلوك الذي سلكه المسلم عن سلوك هذا الأخير تبعا لمفاهيمهما عن الحياة مع أنهما يريان أن الخمر فيها منافع ومضار.

فالسلوك إذن يُبنى على مفاهيم الإنسان عن الأشياء مضافاً إليها مفاهيمه عن الحياة، أي عقيدته.

وقد وضعت الشريعة الإسلامية الحلول لمشاكل الناس باعتبارهم أناسا تدفعهم الطاقة الحيوية، المتمثلة بالغرائز والحاجات العضوية، لإشباع هذه الحاجات والغرائز، على نحوٍ يضمن حسن الإشباع، فالإنسان إما أن يشبع الغريزة أو الحاجة العضوية إشباعاً صحيحاً أو خاطئاً أو شاذاً أو لا يشبعها، وكل فرد من أفراد هذه الحاجات العضوية أو مظاهر الغريزة يمكن أن يشبع بأحد هذه الطرائق الأربع للإشباع، لا يتعداها لغيرها:

إما بالإشباع الصحيح، أو بالإشباع الخطأ أو بالإشباع الشاذ أو أن لا تشبع أبدا.

وأوضح مثال يوضح ذلك مظهر الجنس من غريزة النوع، فهو إما أن يشبع من خلال الزواج وهو الإشباع الصحيح وفق الشرع الاسلامي، أو الإشباع الخطأ: من خلال الزنى، وفق حكم الشرع الاسلامي بأنه إشباع خطأ، أو الإشباع الشاذ، عن طريق زواج مثلي الجنس، أو أن لا يتزوج الإنسان مطلقاً ولا يقرب النساء وينصرف عن ذلك إلى الترهب أو العلم أو الاستعاضة عنه بحنان الأم.

ولا شك أن الإنسان السوي يبحث عن السعادة ليحقق من خلالها نهضته ورفعته على سائر الكائنات، وبالتالي فلا بد عليه أن يبحث دوماً عن الأفكار الصحيحة التي تفسر الكون تفسيراً صحيحاً، وتجعل تفسيره للحياة صحيحاً يضبط سلوكه فيها ضبطاً يحقق له السعادة والنهضة والرقي.

وتشكل الأفكار الناتجة عن أجوبة أسئلة العقدة الكبرى المتعلقة بتفسير الكون والإنسان والحياة، قاعدةً فكريةً، إذ إن هذه الأجوبة تشكل أساساً يقيس عليه سائر الأفكار الأخرى، وذلك لأن من طبيعة هذه الأفكار أنها أفكار كلية، تجيب عن التساؤلات التي تفسر الكون والإنسان والحياة تفسيرا كلياً، وبذلك تشكل لدى الإنسان مفاهيمه عن الحياة، أي وجهة نظر له في الحياة.

والذي يحدد أن الإشباع صحيح أو خطأ **هو القاعدة الفكرية** التي يحكم من خلالها الإنسان، وإلا فلو كان الحكم فقط للمفاهيم عن الأشياء بمعزل عن المفاهيم عن الحياة لاستوى أمر الزواج والزنى.

أما الإشباع الشاذ، فيرجع لأن الإشباع يتم في جهة ليست محلاً للإشباع، **وهو ما يصرف عن النتيجة المرجوة** في نهاية المطاف من مظهر الجنس في غريزة النوع، وهو **الحفاظ على استمرار النوع**، فهو شاذ لأنه لا يفضي إلى استمرار النوع، وقد يحصل أن لا يفضي الزواج إلى أولاد، ولكن العادة أنه يفضي، لكن هذا لا يحصل في الإشباع الشاذ فتدبر.

السلوك والمفاهيم:

إذن فنهضة المسلمين لا بد أن تقوم على الفكر الاسلامي، على المبدأ الاسلامي كما وصفناه.

" فكان لا بد من تغيير فكر الإنسان تغييرا أساسيا شاملا وإيجاد فكر آخر له حتى ينهض" فالنهضة[14] تكون بفكر راق، والفكر حتى يكون راقيا يجب أن تتوفر فيه ثلاث خواص: أن يكون أساسيا وشاملاً وكلياً.

والفكر المنحط هو ما دون الفكر الراقي أي الذي لا تتوفر فيه إحدى هذه الخواص الثلاث أو كلها معا.

فما هو الفكر الأساسي الشامل؟ ولماذا يحتاج له الإنسان لكي ينهض؟

إن الواقع المحسوس الذي يجعلنا نحكم على شخص أنه منحط أو راق هو سلوكه؛ فهل السلوك هو أصل أم فرع لشيء ما؟

يحمل الإنسان أفكارا، وهناك أفكار هي مجرد معلومات عنده بينما هناك أفكار يصدق بصحتها. وهو يتصرف بحسب الأفكار التي يصدق بها أي مفاهيمه، ويقيس على قاعدته الفكرية (وجهة نظره في الحياة) هذه الأفكار ومفاهيم الإشباع، فتتشكل لديه العقلية.

وحيث إنه يتصرف لإشباع طاقته الحيوية، التي توجد عنده دوافع للإشباع، فإن هذه الدوافع ستتحول إلى ميول تحكم عملية الإشباع، فإذا ضبط الإنسانُ ميوله هذه بمفاهيمه، وسيرها وفقا لها، تشكلت لديه نفسيته (تزكية النفس)، وحصل بذلك الانسجام بين عقليته ونفسيته.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ و اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ [النساء: 125] وقال عز وجل ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** (15) **يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: 16].

أما من لم تنسجم عقليته مع نفسيته: قال تعالى: ﴿**ومِنَ الناسِ مَنْ يُعجبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الخِصامِ. وإذا تَوَلَّى سعى في الأرضِ ليفسدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنسلَ واللهُ لا يحبُّ الفسادَ**﴾ [البقرة: 204] وقال جل وعلا :﴿يقولونَ بألسنتِهم ما ليسَ في قلوبِهم﴾ الفتح (11) وقال تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلونَ كَبُرَ مَقتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تفعلونَ﴾ الصف (2)

وعليه فالسلوك ليس أصلا وإنما هو نتيجة لمفاهيم الإنسان أي الأفكار التي صدق بصحتها.

فكر + تصديق = مفهوم

المفهوم... يكيف... السلوك، ويكيف الميول، فارتباط السلوك والميول بالمفاهيم ارتباط حتمي.

[14] أبو علي.

فإذا أردنا أن نغير سلوك الإنسان وجب أن نغير مفاهيمه أي أن نغير فكره بفكر آخر ونجعله يصدق به.

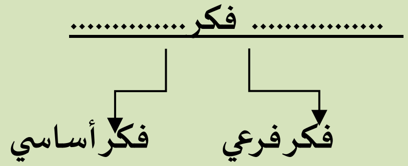
ومن هنا كانت النهضة بالفكر. ولكن أي فكر؟

الفكر فكران فكر فرعي وفكر أساسي، فالفكر الفرعي يؤثر في سلوك معين من سلوكيات الإنسان، أما الفكر الأساسي فإنه يؤثر في مجموعة من السلوكيات عند الإنسان وقد يؤثر في كل سلوكياته.

وللبيان أضرب المثال التالي: فكرة الغش حرام إن تحولت إلى مفهوم عند الإنسان فإنه لا يغش.

بينما مقياس الأفعال هو الحلال والحرام إن تحول إلى مفهوم عنده فإنه يؤثر في كل سلوكياته.

ولهذا فإن فكرة: الغش حرام هي فكرة فرعية، بينما مقياس الأفعال فكرة أساسية.



وبما أننا نريد أن نغير كل سلوكيات الإنسان وجعلها راقية وجب أن نغير فكره بفكر أساسي.

ثم إن الفكر الأساسي أصل والفكر الفرعي فرع، والفرع يبنى على الأصل بينما الأصل يبتنى عليه، ولهذا إذا أردنا أن ننهض بالإنسان فعلينا أن نعطيه فكرا أساسيا وليس فرعيا.

لدينا إذن: فكر أساسي، مثلا وجوب التزام الأحكام الشرعية في الحياة، ولدينا أفكار فرعية: مثل فكرة وجوب إقامة الصلاة، ووجوب إيتاء الزكاة، والصدق والأمانة، إلخ

فالتغيير على أساس فكرة إقامة الصلاة سيفضي فقط إلى إقامة الصلاة ولن يؤثر في الأفكار الأخرى التي هي بحاجة لتغيير، لكن التغيير على أساس التزام الأحكام الشرعية وجعلها مقياسا لأفعال الانسان وسلوكه في الدنيا سيفضي إلى التغيير على أساس الصلاة والزكاة والصدق والأمانة وباقي الأفكار الفرعية.

ولهذا كانت أول خاصية في الفكر الراقي أنه فكر أساسي أي الفكر الذي ليس قبله فكر فهو يبنى عليه كل فكر.

هذا من جهة ومن جهة ثانية، هذا الفكر نريد أن نحقق به النهضة.

فهل نريد نهضة خاصة بك، ونهضة خاصة بي، ونهضة خاصة بالإنسان الأسود وأخرى بالإنسان الأحمر، وأخرى خاصة بالعرق الفلاني أو المنطقة الفلانية...؟ كلا، بل نريد نهضة الإنسان كإنسان. وذلك لأن السلوك المنحط هو سلوك منحط فَعَلَهُ من فَعَلَهُ. والسلوك الراقي هو سلوك راقٍ فَعَلَهُ من فَعَلَهُ. والفكر المنحط سيبقى منحطاً حمله من حمله. والفكر الراقي سيبقى راقيا حمله من حمله.

وعليه حتى يكون الفكر راقيا وجب أن يبحث الإنسانَ كإنسان، فالبحث <u>يجب أن يشمل كل أفراد الإنسان ولا يقتصر على بحث فرد من أفراده.</u>

فالفكر الراقي هو فكر:

- أساسي: أي الفكر الذي ليس قبله فكر.
- وهو فكر شمولي: يبحث الإنسان كإنسان فيشمل كل أفراده ولا يبحث فردا من أفراده

وهو كلي، بمعنى احتوائه على مقاييس وأحكاماً مرجعيةً لمشاكل الإنسان والمجتمع،

أما الفكر المنحط فهو ما دون الفكر الراقي وهو الذي لا تتوفر فيه إحدى الخواص السابقة أو كلها معا.

وكانتْ بذلكَ العقيدةُ أيضاً مقياساً لميولِهِ، فتوجَدُ عندَه العقليةُ والنفسيةُ الإسلاميةُ.

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً(65) ﴾ النساء

وقال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(7) الحشر

وقال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ(59) ﴾ يونس، فقَرَنَتِ الآياتُ بين الإيمانِ وتَحَقُّقِ صدقِهِ وبينَ اتخاذِ ما جاء به الوحيُ مقياساً وحَكَماً على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الحياةِ بهذا يرقى المسلمُ وينهضُ ويَصْدُقُ فيه قولُ الربِّ سبحانَهُ:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (6) التين

مفاهيم، ومقاييس، وقناعات:

"الأفكار هي معاني الألفاظ، والمفاهيم هي معاني الأفكار، لا معاني الألفاظ، فإذا صدق المرء بالفكرة فإنها تتحول من مجرد فكرة إلى مفهوم يؤثر في السلوك، وعليه، فكل فكر جرى التصديق به يسمى مفهوماً بغض النظر عن ضيق المعنى الذي تضمنه المفهوم أو سعته، ومن المفاهيم ما يتعلق بأمر فرعي واحد فقط كحرمة شرب الخمر، فهي تحوي معنى واحداً هو أن الشرع حرم شرب الخمر، أي حوت حكماً فرعياً واحداً فقط... لكن بعض المفاهيم تتعلق بمعان متعددة لأنه يمكن أن تقاس بها أفكار فرعية عدة فهي ليست محصورة في أمر واحد... فمثلاً مفهوم الحلال والحرام هو مفهوم يغطي أعمال الإنسان كلها، فهو مقياس لأعمال الإنسان، فلا يتعلق بأمر واحد فقط، بل هذا المفهوم في هذه الحالة هو مقياس تقاس به أفكار ومفاهيم أخرى. ومثلاً مفهوم الأصل في الأشياء الإباحة هو مقياس تقاس به أمور كثيرة وليس محصوراً في أمر واحد، وهكذا فإن المقياس من جهة السعة هو أعم من المفهوم، وهو في المقابل أخص من المفهوم باعتبار مصطلح المفهوم يطلق على الأفكار الجزئية كما يطلق على المقياس، وبهذا يتبين أن كل مقياس هو فكرة ومفهوم عند من يصدق به، ولكن ليس كل مفهوم مقياساً لأن المفهوم قد يكون فكرة فرعية وقد يكون مقياساً، أما المقياس فلا يكون إلا أمراً تبنى عليه فروع وتقاس به، فلا يكون فكرة فرعية.

أما القناعات فهي المفاهيم والمقاييس التي أخذت دور العراقة عند الفرد والأمة، وأصبحت متركزة في النفوس وفي المجتمع بحيث يصعب انتزاعها، فإذا تأصل المفهوم أو المقياس في النفوس وفي المجتمع فإنه يرتقي درجة ويصبح قناعة بحيث لا يتأتى قلعه وإزالته بسهولة من الفرد والمجتمع، وهناك بعض المفاهيم والمقاييس التي يجب أن تصل إلى درجة القناعات عند الفرد والمجتمع للحفاظ على الفرد والأمة، وذلك مثل مفهوم ومقياس أن الأصل في الأفعال التقيد بالحكم الشرعي، ومثل مفهوم الطاعة، ومثل الجهاد، ومثل التوكل على الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ.

بهذا الاعتبار المذكور في الأعلى عن القناعة فإن كل قناعة هي مفهوم أو مقياس، ولكن ليس كل مفهوم أو مقياس فهو قناعة، لأن المفهوم والمقياس اللذين لم يتأصلا في النفوس وفي المجتمع لا يصلان درجة القناعة وإن جرى التصديق بهما، أي لا يصلان درجة من الرسوخ والتركز والاستقرار بحيث يطلق عليهما مصطلح قناعات، وهذا بالطبع لا يعني أن الناس غير مقتنعين بهما بالمعنى اللغوي للقناعة، وذلك لأنهم يصدقون بهما... بل هما لا يحققان وصف قناعات بالمعنى الاصطلاحي مع أنهما صارا مفهوماً ومقياساً.

والخلاصة: الفكرة إن كانت فرعية وحصل التصديق بها فهي مفهوم، وإن كانت فكرة يبنى عليها غيرها من الأفكار الفرعية وجرى التصديق بها فهذا المفهوم يصبح مقياساً، والمفهوم والمقياس إن تأصلا في النفوس وفي المجتمع والأمة صارا قناعات[15]."

ولقد تبلورت المفاهيم والمقاييس والقناعات التي حرص الإسلام على أن تتحول إليها أحكامه (معالجاته، نظامه) على صورة مجموعة من القيم[16]التي صاغتها الحضارة الإسلامية، **والتي تؤسس للقناعات التي سيحيا عليها الناس في سلوكهم الفردي، وفي علاقاتهم المجتمعية**، أي إن القاعدة الفكرية التي أسس لها الإسلام لتشكل الشخصية الإسلامية للفرد، هي هي القاعدة الفكرية التي ستقوم عليها علاقات المجتمع، والتي ترسخت في صميم العلاقات التي يقوم المجتمع عليها، فاقترن حفاظ الأمة والمجتمع على منظومة تلك القيم وحراستها، ومنع أضدادها أو ما يفسدها، (أي بفريضة الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر بكل أنواعها) برقي الأمة ونهضتها، وخيريتها، وانسجامها مع نفسها، واقتعادها مقعد الذروة أمام غيرها من الأمم، فكانت حصناً منيعاً شديداً يحمي ويحفظ.

وقد حرص الإسلام كل الحرص أن يتمثل هذا النظام وهذا التصور العقدي على صورة عُرفٍ (أعراف) مجتمعية، وأضحى الخروج على القيم والأخلاق والمقاييس والمفاهيم والقناعات التي وضعها الشارعُ جريمةً يعالجها الشارع على مستويات عدة تتناسب مع حجمها وأثرها، فمن مسؤوليات مجتمعية تتمثل في النصيحة والإرشاد والتعليم، والأمر **بالمعروف** والنهي عن **المنكر** والمحاسبة والإنكار والتغيير (باليد أو باللسان أو بالقلب)، ووضوح دور الفرد والأحزاب السياسية والدولة فيه، إلى الأَطْرِ على الحق أَطْراً، ومنع مجالسة فاعل المنكر، إلى رفع السيف واستعمال القوة لتغيير المنكر، إلى مسؤوليات الدولة من العقوبات، إلى غير ذلك من الأُطُرِ التي تحافظ على سواد مجموعة القيم والمقاييس والقناعات المنبثقة عن العقيدة والتي تشكل الإطارَ الناظمَ للشريعةِ وأحكامِها، والتي توجد نمطاً خاصاً من العيش، ونظاماً يصلح به الإنسان ويَسعَدُ به، ومنظومةً من العُرَفِ التي يعتبر نقيضها منكراً محارَباً منبوذاً!

---

[15] جواب سؤال: الدولة كيان تنفيذي لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات. عطاء أبو الرشتة. 15 آب 2022.

[16] "القيم هي معايير ومقاييس الفعل البشري، ومحددات السلوك، وضابط أهداف النشاط الإنساني أو المسيرة البشرية في المجالات جميعا". العدالة والعولمة، عبده مختار موسى، ص 2.

ويتميز التشـريعُ الإسـلاميُّ بوضـعهِ للقوانين أهدافاً مرادةً من ورائها، وحِكَماً باعثةً عليها، وأسـباباً[17] **ومقاصـد** دافعةً إليها[18]، **أي سيضع مقاييس للقوانين والتشريعات**، وتشكل الإطار الذي تتحرك في نطاقه كافة القوانين في مختلف مجالات الحياة[19]، والأصـل أن تتكامل القوانين فيشـد بعضـها أزر بعض، فنظام العقوبات مثلا ينبني على حسـن أداء النظام الاقتصـادي والتكافل الاجتماعي ومسـؤوليات الدولة الرعوية[20]، وهكذا، فالقوانين إنما وضـعت لتكون خادمةً للقيم التي يراد لها أن تسـود حياة الناس[21]، (أي المفاهيم والقناعات التي يقوم عليها السـلطان أي الدولة)، كقيمة العدالة، (قيل: العدل أساس الملك).

تزكية النفس:

لقد أحاط الشارع الحكيم الشرع بأسيجة وقواعد تحقق فعالية تطبيقه على مستوى الفرد والمجتمع، وسنضرب مثلا سريعا تتجلى فيه تداخل هذه القواعد والأسيجة بعضها مع بعض لترقى بالسلوك لأعلى درجة من الانضباط:

فالتاجر المسـلم مثلا اختار التجارة وانتهى عن الربا وفقا لمنظومة وإطار (الحلال والحرام)، ملتزماً بما يسـمح به الوحي وما يمنع، يمتنع عن بيع الخمر وإن كانت فيه مرابح مادية دنيوية لأنه ملتزم بإطار الحلال والحرام لا بإطار المادة وجني الأرباح، ويجب عليه أن يتحرى الصـدق، وممنوع عليه الغش، وفقا لمنظومة وإطار (الأخلاق)، وممنوع من الاحتكار (يظهر فيه استغلال حاجة الناس لجني الأرباح) (وفقا لمنظومة الاقتصـاد الذي يُعنى بعلاج مشـاكل المجتمع وضمان كيفية توزيع الثروة ووصول الناس لقضاء حاجاتهم)، كما أنه أمره بالتقوى في كل حال ومع كل فعل، (مراقبة الله) وهذا إطار عام يلزم في

---

[17] بالنسبة للشريعة الإسلامية نعني بالمقاصد والأسباب هنا: النتيجة التي تترتب على الشريعة، أي الحِكمة الناتجة عن تطبيقها، وليس الباعث على تشريعها، أي غاية الشارع التي يهدف إليها من تشريع الشريعة، لا العلة بمفهومها الأصولي، ولا تلتمس العلة الباعثة على التشريع، ولا الحِكمة إلا إذا ذكرهما الشارع، وقد جاءت آيات تبين غايات كلية وحِكَماً تنتج عن تطبيق الشريعة مثل كونها رحمة، ومثل قيام الناس بالقسط، وما شابه، وقد استنبط الفقهاء مقاصد للشريعة كما هو مقرر في كتب الأصول، وليس البحث هنا في كل حكم شرعي، إنما في مقاصد الشريعة ككل، وأثر تلك المقاصد على القوانين الضابطة للعلاقات في المجتمع.

[18] من العلوم القانونية الموازية لعلم مقاصد الشريعة الإسلامية علم فلسفة القانون (أو الفقه) الذي صار يحتل مكانة رائدة في الدراسات القانونية الغربية تحت مسـمى: (Philosophy of law)، نظراً لطبيعة موضـوعاته التي تركز على الاهتمام بدراسـة قواعد منح السـلطة وطاعتها، والغايات والحِكَم التي تكمن وراء النظم القانونية، والكشـف عن العلاقة بين القانون والمجتمع، وهي عموما تدور حول: حماية "حقوق الإنسـان"، وتحقيق العدالة والصـالح العام؛ **والاسـتقرار القانوني والأمن القانوني** وكل هدف له أسس يقوم عليها ووسائل تؤدي إلى تحقيقه، ويبحث في طبيعة القانون لا سيما في علاقته بالقيم الإنسانية والممارسات والمجتمعات، والأخلاق –ارتباطه ببعض العناصر الأخلاقية؛ بحسب مذهب القانون الطبيعي، أو بالعكس: ضرورة انفصاله عنها كما أسس المذهب الوضعي للفصل هذا؛ فلا يتضمن القانون في محتواه أي عناصر أخلاقية، **وتحاول** تلك الفلسفة التأسيس لتشريعات بحيث **تصلح لكل القوانين** (**لا لقانون بلد معين**) في كل الأوقات (**لا في زمن معين**). أنظر: مقاصد القانون الوضعي في ضـــوء مقاصد الشريعة الإسلامية، بقلم د. عليان بوزيان منشور في العدد 150 من مجلة المسلم المعاصر، وانظر: مبادئ فلسفة القانون، ترجمة د. زهير الخويلدي، شبكة النبأ المعلوماتية، عن: الموسوعة البريطانية. وانظر: فلسفة القانون، مفهوم القانون وسريانه، البروفيسور روبرت ألكسي، تعريب الدكتور كامل فريد السالك، منشورات الحلبي الحقوقية، ص 9.

[19] أنظر فصل: إقامة الخلافة من مقاصد الشريعة الكبرى في كتابنا: الخلافة والإمامة في الفكر الإسلامي.

[20] مثال ذلك أن النظام الاقتصادي، والتكافل الاجتماعي، ومسؤوليات الدولة الرعوية في الإسلام تكفي الفرد حاجاته، فإذا ما سَرَقَ الفردُ بعد ذلك يكون قد اعتدى واستحق العقوبة، وحين يسرق الجائع في يومِ مَسْغَبَةٍ فإنه لا يُقْطع؛ لأن الحدود تُدْرَؤُ بالشبهاتِ، وهكذا فالأنظمة تتكامل ويأخذ بعضها برقاب بعض لأداء وظائف كلية في المجتمع!

[21] من أهم وأجل القيم الإسلامية قيمة تحقيق العبودية لله وحده دون غيره، بمفهوم العبودية الواسع، وبمفهومها الخاص بموضوع التشريع، واعتبار التشريع حقاً له وحده، (كتاباً وسنةً)، وأن اتباع الناس بعضهم بعضا في التشريع هو بمثابة اتخاذهم أرباباً من دون الله!

كل فعل يضمن تحقيق غايات كثيرة تتعلق بالحرص على التزام النظام الإسلامي بشكل عام في كل شأن، وأمره بالإحسان، (وهو إطار عام يتكفل بإتقان وإحسان كل عمل يعمله)، واعتبر سعيه في الرزق طلبا للحلال نوعاً من العبادة يؤجر عليه، إذ لو داخله الحرام أثم، فلا يأكل إلا حلالا، (وهذا إطار جمع الاعتقاد بالعبادة، فهو إطار عقدي ناظم لتصوره لطبيعة نتيجة عمله المادية إذ تربطه بالاعتقاد ولا يكتفي بالسعي لجني الأرباح بأي طريقة كانت)، وأمره بالأخذ بالأسباب، (وهو إطار عام مطلوب في كل عمل ليحقق غايات دينية ودنيوية، فيختار سلعاً معينة للتجارة بها، تدر عليه الربح أو يحتاجها المجتمع وهكذا، فهو إطار دافع لحسن اختيار أفضل الأعمال المحققة لغايات الإنسان والمجتمع، فلم يغفل الإسلام مصلحة هذا التاجر ومنفعته وحاجات المجتمع)، والتوكل على الله، (وهو إطار عقدي جامع مانع، يتجاوز معضلة إخفاق بعض الأسباب في تحقيق المراد، فيربط عمله بالاتكال على الله ليدبر له من شأنه ما لا يستطيعه بأسبابه التي قدرها بمعطياته الإنسانية البشرية القاصرة)، وربط عمله بمفهوم الرزق أنه على الله، فلا يخاف إلا الله، وهو إطار ضامن بأن لا يعتبر التزامه بأفعال أخرى مؤثراً على عمله كتاجر، كأن يقول بالحق أينما كان، ولا يخشى إلا الله، وأمره بتطهير ماله بالزكاة، والصدقة، (وهو إطار يصب في تحقيق غايات مجتمعية يتكامل فيها النظام الاقتصادي بالاجتماعي ليحقق التكافل الاجتماعي ويكفي حاجات من لا يستطيع قضاء بعض الحاجات، وهذا الإطار يتضمن أيضاً أن يقوم بهذه الصدقات والزكاة لا من باب الإحسان للفقير فقط، ولكن من باب مسؤولياته المجتمعية التي أناطها الإسلام به، ومن باب الولاية العامة بين المؤمنين بعضهم بعضاً، فهي أطر كثيرة تحقق غايات عظيمة خطيرة)، ووضع على السوق محتسبين، وأمر التجار بالفقه في الدين لمعرفة الحلال من الحرام في معاملاتهم، وهكذا تجد المزاوجة بين الأفعال وبين الأخلاق وبين القيم التي تمثل الغاية المطلوب تحقيقها من وراء تلك الأفعال، والتي يراد لها أن تسود! وبين الفعل وبين الثواب والعقاب، والتخويف من عقوبة الدنيا والآخرة، والمفاهيم العقدية، وهذا من شأنه أن يضمن تكامل الأنظمة المختلفة لتحقيق غايات مجتمعية وأخروية، **<u>وكل ذلك يجتمع في عمل واحد</u>**!

فلم يعد التاجر يمارس التجارة فقط، بل تتجسد فيه مجموعة القيم والأخلاق والمقاييس والمقاصد والمفاهيم العقدية وأنظمة الإسلام المختلفة في آن واحد وهو يمارس التجارة!

وهذا بالضبط هو ما ضمن **<u>فعالية تطبيق نظام الإسلام وسرعة الاستجابة لتشريعاته</u>**، فما هي القوانين الناظمة لعمل التاجر في الحضارة الغربية العلمانية؟ ضرائب! ممنوع غسيل الأموال (كي تعرف الدولة ما لها من ضرائب!)، التنافس الشريف، promotion of competition and fair trading، وهو ما قضت عليه الشركات الكبرى باحتكار السوق بسبب قوتها وهيمنتها والتجاء التجار الصغار إليها وإلا لم تنجح تجارتهم، فهذا التنافس الشريف مجرد شعار غير متحقق في الواقع، حماية المستهلك، وهو ما قضت عليه الشركات الكبرى بالتجسس على هذا المستهلك لتتبع رغباته واحتياجاته للتجار الآخرين عبر منصاتها، فتجني الأرباح! وممنوع أن يبيع الدخان والخمر والقنب الهندي للقاصر، ويسمح له بيعها على ما فيها من ضرر للبالغ! لأن المهم هو كسب المال وتنميته! هل من شيء آخر؟ راجع إن شئت ما يسمى: Trade Legislation Acts and Regulations في أي بلد رأسمالي، وهذه القوانين بالطبع ليست منبثقة من المبدأ العلماني، وإنما شأنها شأن أي قوانين في الدول العلمانية تسنها الهيئات التشريعية بما تمليه عليهم مصالح الدول وتسيير شؤونها، فهذا مثال يبين

الضمانات التي تحقق فعاليّة تطبيق التشريع الإسلامي في الو اقع، مقارنة بفشل التشريعات البشرية التي تستعمل عصا القانون لتطبيق التشريعات ولا **تحيط التشريعات بأي سياج يضمن فعاليتها**!.